

بلاغة الخطاب في السور المدنية، دراسة تحليلية لسورة الحجرات

Balaghah of discourse in the Medinan surahs, an analytical study of Surah Al-Hujurat

د. عبد الرحمن معوض علي طحاوي

جامعة السلطان عبدالحليم معظم شاه الإسلامية العالمية _ قدح _ ماليزيا

Abdelrahman Moawad Ali Tahawi

Sultan Abdul Halim Mu'adzam Shah International Islamic University

E-mail: abdelrahman@unishams.edu.my

Article Progress

Received: 10 May 2024

Revised: 24 April 2024

Accepted: 19 June 2024

*Corresponding Author:

د. عبد الرحمن معوض علي طحاوي
جامعة السلطان عبدالحليم معظم شاه
الإسلامية العالمية _ قدح _ ماليزيا
DR. ABDELRAHMAN
MOAWAD ALI TAHAWI
Sultan Abdul Halim
Mu'adzam Shah
International Islamic
University

الملخص:

موضوع هذا البحث "بلاغة الخطاب في السور المدنية، دراسة تحليلية لسورة الحجرات"، وترجع أهمية هذا الموضوع إلى اتصاله بأعظم نص لغوي وهو القرآن الكريم، واهتمامه بدراسة جانب مهم يسهم بقدر كبير في فهم معاني القرآن الكريم وتدبر أحكامه، وتناوله للعنصر المكاني الذي يأتي فيه أسلوب الخطاب تبعاً للسمات الخاصة بالمجتمع المدني، ولاشك في أن التعرف على تلك السمات يعين على فهم المواقف من ناحية، ومعرفة الخطاب الموجه من ناحية أخرى. وتتمثل إشكالية هذا البحث في الوقوف إزاء آيات النداء في سورة الحجرات وذلك لدرسها درساً تطبيقياً معنياً بالبحث عن دلالتها، وتحديد الظواهر اللغوية في الأسلوب القرآني فيها والتي يعزى إليها بلورة تلك الدلالة في أذهان المتلقين، ويهدف البحث إلى رصد سمات الخطاب القرآني في السور المدنية، وبيان ما مثله النداء من مركزية في سورة الحجرات؛ حيث اعتمدت السورة أسلوب النداء في مواضع كثيرة وهو أحد أساليب التوطئة والتهيئة التربوية والذي مهّد لكثير من الموضوعات والقوانين والآداب التي تضمنتها السورة الكريمة. والمنهج المتبع في تناول هذا البحث يقوم على الاستقراء والوصف والتحليل على أساس من الأخذ المتكافئ والربط التام. الخاتمة: وتضم أهم ما توصل إليه هذا البحث من نتائج. وقد أثبت في نهاية البحث قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: : الخطاب - النداء - القرآن المدني - سورة الحجرات - الدلالة.

المبحث الأول: خصائص الخطاب القرآني في السور المدنية

من المعروف أن القرآن الكريم لم ينزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - دفعة واحدة، وإنما نزل منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة تقريباً وقد بدأ نزوله بمكة المكرمة واستمر نزوله بها ثلاثة عشر عاماً حتى هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة المنورة حيث استمر نزول القرآن بها عشر سنوات، وكان الوحي قبل الهجرة وبعدها يواكب أحداث الحياة وتطوراتها، وقد اقتضت حكمة التنزيل أن يكون الأسلوب مناسباً لظروف المجتمع الذي ينزل فيه سواء كان في المجتمع المكي أو المجتمع المدني، ومن ثم كان للوحي طبيعتان متغايرتان لكل منهما أسلوبها وخصائصها، ومن هنا فإن معرفة المكي والمدني تسهم في التعرف على لون الخطاب، وإدراك ما يهدف إليه، ويشير إلى ذلك أحد الباحثين بقوله: " إن تلمس السمات الخاصة فيما نزل بمكة وما نزل في المدينة والوقوف على المميزات الرئيسية لكل، إنما هو إدراك لمزايا الأداء القرآني بوجه عام، ومعرفة للكيفية التي كان عليها أسلوب الدعوة، وما تلون به الخطاب حين وافق الأحوال والمقتضيات"⁽¹⁾.

وحول تحديد المكي والمدني ثارت خلافات وتعددت آراء يجملها الزركشي والسيوطي⁽²⁾ في اصطلاحات ثلاثة هي:

أولها: أن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمبنى وعرفات والحديبية وفي المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد .

ثانيها: أن المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة .

ثالثها: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة .

وبالنظر إلى هذه الآراء الثلاثة نجد أن الأول منها ينقصه عنصر الشمول، فهو وإن كان قد اعتمد على عنصر المكان إلا أنه لم يشمل جميع الأماكن التي نزل فيها الوحي، كبيت المقدس مثلاً، وقد اعتمد الرأي

1- د. السيد أحمد عبدالغفار : قضايا في علوم القرآن تعين على فهم دلالات النص - دار المعرفة الجامعية - 55 .

2- انظر الزركشي : البرهان في علوم القرآن - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - 1988 - 239/1، وانظر

السيوطي : الإتيان في علوم القرآن - دارالندوة الجديدة - بيروت - 9/1 .

الثالث على أسلوب الخطاب، لكنه لا يشير إلى صيغة هذا الأسلوب، فهو قول ينقصه التحديد. والرأي الثاني هو الرأي المشهور بين العلماء وهو الذي اعتمده الباحث خلال هذا البحث حيث يتخذ هذا الرأي وقت الهجرة فاصلاً بين ما هو مكّي، وما هو مدني، ويدعم هذا الرأي أن الخطاب القرآني كان يأتي ملائماً لظروف المجتمع الذي ينزل فيه، وقد كانت ظروف المجتمع المكّي تختلف عن تلك الظروف التي كان عليها المجتمع المدني، وفي تلك الظروف يأتي القرآن موافقاً لما عليه المجتمع في مكة أو في المدينة، ومعالجاً للمواقف والمشكلات، ولكن يبقى أن نشير هنا إلى أن التمايز بين المنهجين المكّي والمدني هو تمايز قائم على الأغلب والأعم فهما في نهاية الأمر يعالجان هدفاً واحداً وهو توطيد الدعوة الإسلامية واستكمالها ويشير الدكتور المطعني إلى وحدة القرآن الكريم وتناسق آياته وسوره فيقول: "على أنك تلاحظ آيات مكية منبثة بين آيات سور مدنية، وبرغم ذلك لا يكاد يحس أحد التفاوت أو التفكك والانقطاع، بل يروّعك ما بين الجميع من خلال الوحدة وكمال الاتصال، وجمال التناسق والانسجام، مما جعل القرآن كله على طول سلسلة واحدة متصلة الحلقات، أو عقداً رائعاً منتظم الحبات، أو قانوناً رصيناً مترابط المبادئ والغايات، وإن شئت فاعمد إلى أي سورة من سور القرآن، وتنقل بفكرك بين آياتها، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطء أولها لأخرها؟"⁽³⁾. لظهر وانتشر وإنما لم يفعله؛ لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة"⁽⁴⁾.

ونعرض هنا لتلك الخصائص التي تميزت بها السور المدنية والتي هي موضع اهتمام هذه الدراسة:

خصائص الآيات والسور المدنية:

- تميزت السور والآيات المدنية ببيان أحكام التشريع: من حدود وإرث ومعاملات مادية وبيان مناهج الحكم، ولهذا جاءت الآيات المدنية ذات طبيعة تشريعية مفصلة للأحكام مبينة للحقوق، وأسلوب البيان التشريعي لا بد فيه من الإطالة والتوضيح.

1- علوم القرآن : 52.

2- البرهان في علوم القرآن : 1/ 246

- تتميز الآيات المدنية بخصائص تجسد واقع المجتمع الإسلامي الذي يواجه تحديات خارجية تستهدف كيانه ووجوده، وتحديات داخلية تستهدف تنظيم شئونه على قواعد ثابتة تحقق الانسجام بين مبادئ الإسلام وواقع المجتمع الإسلامي.
- كان من الضروري أن ينصرف الاهتمام إلى وضع أسس ذلك المجتمع، إذ لا يمكن لأي خطاب أن يتجاهل طبيعة المخاطب وهمومه ومشاغله وقضاياه، وجاءت الآيات المدنية معبرة عن قضايا المسلمين، منظمة شئونهم، مرشدة لهم لكي يختاروا الطريق السليم في التعامل لإرساء الحجر الأساسي في بناء المجتمع الإسلامي، منظمة أحكام الجهاد والمال والحكم والأسرة والعقوبات داعية المسلمين إلى التكافل المادي الذي هو أساس التناصر وعماد الأمن والاستقرار.
- اختلف أسلوب الخطاب القرآني، واختلفت موضوعاته، وتوجه الخطاب إلى أهل المدينة من مؤمنين ومنافقين ويهود، مشجعا المؤمنين على الدفاع عن وجودهم وكيانهم، محذرا المنافقين من مغبة ما يفعلونه في الظلام من غدر ناصحا إياهم بالتوبة والتزام طريق المؤمنين، وفي نفس الوقت اتجه الخطاب القرآني إلى اليهود، مبينا لهم زيف ما حرفوه من كتبهم وديانتهم، ذاما ما أخذوا أنفسهم به من غدر وخيانة، مشجعا لهم على الانضمام إلى مواكب الإيمان، مرحبا بكل من يعلن توبته وولاءه للإسلام.
- وجود أحكام الجهاد؛ فالجهاد لم يكن مشروعاً في مكة، وإنما شُرع في العهد المدني، وجاءت الآيات المدنية مفصلة لأحكام الجهاد والأسرى والغنائم وأحكام القاعدين عن الوفاء بفريضة الجهاد عن عذر أو غير عذر.

- كثرة خطاب المؤمنين؛ فالمرحلة المدنية كانت مرحلة التعليم والتوجيه والنصح والتكوين، ولهذا جاءت أحكام البيان التشريعي في إطار خطاب المؤمنين، الذي يتضمن أحيانا الشدة والتخويف والتحذير من غضب الله في حالة التقاعس عن أداء ما أمر الله به، أو ما نهى عنه.
- تتميز الآيات المدنية بخصائص تجسد واقع المجتمع الإسلامي الذي يواجه تحديات خارجية تستهدف كيانه ووجوده، وتحديات داخلية تستهدف تنظيم شئونه على قواعد ثابتة تحقق الانسجام بين مبادئ الإسلام وواقع المجتمع الإسلامي. وكان من الضروري أن ينصرف الاهتمام إلى وضع أسس ذلك المجتمع، إذ لا يمكن لأي خطاب أن يتجاهل طبيعة المخاطب وهمومه ومشاغله وقضاياها.
- جاءت الآيات المدنية معبرة عن قضايا المسلمين، منظمة شئوهم، مرشدة لهم لكي يختاروا الطريق السليم في التعامل لإرساء الحجر الأساسي في بناء المجتمع الإسلامي، منظمة أحكام الجهاد والمال والحكم والأسرة والعقوبات داعية المسلمين إلى التكافل المادي الذي هو أساس التناصر وعماد الأمن والاستقرار.

هذا وقد وضع العلماء سمات وضوابط قطعية⁽⁵⁾ تميز القرآن المدني نعرضها فيما يلي :

- 1- كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية .
 - 2- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ، سوى العنكبوت ، فإنها مكية .
 - 3- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية .
- هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية ، وخصائص الأسلوب ، فيمكن إجمالها فيما يأتي :

- 1- بيان العبادات ، والمعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والمواريث ، وفضيلة الجهاد ، والصلوات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية في السلم والحرب ، وقواعد الحكم ، ومسائل التشريع .

- 2- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنبيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم.
- 3- الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسيتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين.
- 4- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها وبعد فتلك هي خصائص القرآن المدني الذي هو بعض من القرآن الكريم ويرغم أنه يشترك مع سائر القرآن في خصائصه القرآنية العامة، وفي تفرد عن كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد. إلا أنه مع ذلك له جوه الخاص ومذاقه المعين ، الذي يعينه موضوعه الرئيسي وهو التشريع كما يعينه أسلوب العرض لهذا الموضوع ، وهو أسلوب موح ، عميق الإيقاع بالغ التأثير ؛ حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير من البناء اللفظي ، إلى المؤثرات الموضوعية .

المبحث الثاني: مركزية النداء في سورة الحجرات

يعنى هذا المبحث بالوقوف إزاء آيات النداء في سورة الحجرات وذلك لدرسها درسًا تطبيقيًا معنيًا بالبحث عن دلالتها، وبتحديد الظواهر اللغوية في الأسلوب القرآني فيها والتي يعزى إليها بلورة تلك الدلالة في أذهان المتلقين.

لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة، وملاحظتها المميزة، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعًا.. ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها، تبرز فيه ملاحظتها، وتتميز به شخصيتها. كالكائن الحي المميز السمات والملامح، وهو - مع هذا - واحد من جنسه على العموم! ونحن نرى في هذه السورة - ونكاد نحس - أنها كائن حي، يستهدف غرضًا معينًا، ويجهد له، ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل.. والفقرات والآيات والكلمات في السورة هي الوسائل التي تبلغ بها ما تريد! ومن ثم نستشعر تجاهها - كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن - إحساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحي، المعروف السمات، المميز الملامح، صاحب القصد والوجهة، وصاحب الحياة والحركة، وصاحب الحس والشعور! إن السورة تعمل بجد وجهد في محو روااسب الجاهلية من المجتمع المسلم، كما تعمل بجد وجهد⁽⁶⁾ في استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة، وذلك ببيان طبيعة المنهج الذي منه انبثقت هذه الكينونة المميزة،

(6) في ظلال القرآن : 2258/8 .

والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله - من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود - وأعدائه المتميعين فيه - من ضعاف الإيمان والمنافقين - وكشف وسائلهم وحبلهم ومكايدهم، وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم. مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحده، وتصبه في القالب التنفيذي المضبوط.

والسورة موضع الدراسة هي سورة «الأخلاق والآداب» فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مرات، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم، أو نهي عن رذيلة من الرذائل، وقد جاءت هذه السورة مناسبة لما قبلها شأن كثير من سور القرآن، قال الزرقاني: "إن القرآن تفرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تحاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمطٌ وحيد وعقدٌ فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوفاً لأوله، وبدا أوله مواتياً لآخره"⁽⁷⁾ والمتأمل في سورة الحجرات يلحظ توأخيتها مع السورة التي قبلها، وهي سورة الفتح؛ لكونهما مدينتين ومشملتين على أحكام وسورة الفتح فيها قتال الكفار وسورة الحجرات فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين آمنوا وهذه افتتحت بالذين آمنوا، وتلك تضمنت تشريفات له - صلى الله تعالى عليه وسلم - خصوصاً مطلعها وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشریف له عليه الصلاة والسلام، وذكر صاحب البحر: "ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة، لأنه ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، ثم قال:

(7) مناهل العرفان: 1 / 53.

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"⁽⁸⁾، فرما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه، فقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"⁽⁹⁾.

هذا عن الجو العام للسورة وعن وجه مناسبتها لما قبلها أما أحوال نظمها ودلالة النداء في هذا النظم الكريم فنجد ما يلي:

التأمل للنظم القرآني في سورة الحجرات يدرك مركزية النداء في تلك السورة، فالسورة على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة، وأسس المدنية الفاضلة، حتى سماها بعض المفسرين "سورة الأخلاق"، وجاء أسلوب النداء فيها متماشياً مع مقاصد السورة، وقد أشار الفخر الرازي إلى هذا، يقول: "هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى أو مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو مع غيرهم من أبناء الجنس، وهم على صنفين؛ لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة، أو خارجاً عنها وهو الفاسق، والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم، فهذه خمسة أقسام: أحدها:

يتعلق بجانب الله .

وثانيها: بجانب الرسول .

وثالثها: بجانب الفساق .

ورابعها: بالمؤمن الحاضر .

وخامسها: بالمؤمن الغائب، فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة، فقال أولاً: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"⁽¹⁰⁾، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله؛ لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله، وقال ثانياً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)⁽¹¹⁾ لبيان وجوب احترام النبي - صلى الله عليه وسلم -

(8) البحر المحيط: 8 / 105.

(9) سورة الحجرات، آية 1

(10) سورة الحجرات، آية 1

(11) سورة الحجرات، آية 2

وقال ثالثاً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ)⁽¹²⁾ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم، وبين ذلك عند تفسير قوله: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)، وقال رابعاً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ)⁽¹³⁾ وقال: (وَلَا تَنَابَرُوا)⁽¹⁴⁾ لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم، وقال خامساً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ)⁽¹⁵⁾ وقال: (وَلَا تَجَسَّسُوا)⁽¹⁶⁾ وقال: (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا)⁽¹⁷⁾ لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته، وذكر ما لو كان حاضراً لتأذى، وهو في غاية الحسن من الترتيب"⁽¹⁸⁾.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ".

يتجه الخطاب في مطلع السورة إلى الذين آمنوا يناديهم بالصفة التي تميزهم، والتي تربطهم برحمهم ونبيلهم، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتلبية "تصدير الخطاب بالنداء لتنبية المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ووصفه بالإيمان لتنشيطهم والإيدان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به"⁽¹⁹⁾.

والتقدم حقيقته: المشي قبل الغير، وفعله المجرد: قدم من باب نصر، قال تعالى: "يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ"⁽²⁰⁾

والمراد، أي لا تبرموا أمراً، ولا تبدوا رأياً، ولا تقضوا حكماً قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد حذف مفعول "تقدموا" للشمول والعموم ليذهب ذهن المتلقي إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل وقد جاء

(12) سورة الحجرات، آية 6

(13) سورة الحجرات، آية 11

(14) سورة الحجرات، آية 11.

(15) سورة الحجرات، آية 12.

(16) سورة الحجرات، آية 12

(17) سورة الحجرات، آية 12.

(18) سورة الحجرات، آية 12.

(19) مفاتيح الغيب: 102 / 28.

(20) سورة هود، آية: 98.

قوله: "لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" على سبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبه حالهم في إبداء الرأي، وقطع الأمر في حضرة الرسول-صلى الله عليه وسلم-، بحال من يتقدم مماشيه في مشيه ويتركه خلفه. ووجه الشبه الانفراد عنه في الطريق. وقد أشار الزمخشري إلى فائدة هذه الاستعارة قائلاً: "وقد جرت هذه العبارة هاهنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً. ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان: وهي تصوير المهجنة والشناعة فيما نحوها عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، والمعنى: أن لا تقطعوا أمراً إلا بعدما يحكممان به ويأذنان فيه، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل. وإما مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم" (21).

والنهي للتحذير والتنبيه على التزام هذا النوع من الأدب الخاص "فهو أدب نفسي مع الله ورسوله. وهو منهج في التلقي والتنفيذ. وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته.. وهو منبثق من تقوى الله، وراجع إليها، هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم.. وكل ذلك في آية واحدة قصيرة، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة" (22).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ" (23).

إعادة النداء ثانياً للاهتمام بهذا الغرض والإشعار بأنه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه حتى لا ينغمر في الغرض الأول، ومع إعادة النداء نستشعر مركزية النداء في سورة الحجرات، حيث يرتبط بالأهداف العامة والمقاصد الكبرى للسورة، وقد ذكر الفخر الرازي خمس فوائد في إعادة النداء، يقول: "في إعادة النداء فوائد خمسة: منها أن يكون في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما في قول لقمان لابنه: "يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" (24)، وقوله: "يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ" (25) وقوله: "يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ" (26) لأن النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه، بإعادته تفيد ذلك، ومنها أن لا يتوهم

(21) الكشاف: 5/ 554.

(22) في ظلال القرآن: 6/ 3338.

(23) سورة الحجرات، آية: 2.

(24) سورة لقمان، آية: 13.

(25) سورة لقمان، آية 16.

(26) سورة لقمان، آية: 17.

متوهم أن المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا؛ فإن من الجائز أن يقول القائل: يا زيد افعل كذا، وقل كذا يا عمرو ، فإذا أعاده مرة أخرى وقال : يا زيد قل كذا، يعلم من أول الكلام أنه هو المخاطب ثانيا أيضا، ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود، وليس الثاني تأكيدا للأول، كما تقول: يا زيد لا تنطق ولا تتكلم إلا بالحق ، فإنه لا يحسن أن يقال: يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم ، كما يحسن عند اختلاف المطلوبين، وقوله تعالى: "لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ" يحتل وجوها: أحدها: أن يكون المراد حقيقته، وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام، وهذا من مسألة حكمية وهي أن الصوت بالمخارج ، ومن خشى قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة، فلا يخرج منه الصوت بقوة، ومن لم يخف ثبت قلبه وقوي، فرفع الهواء دليل عدم الخشية⁽²⁷⁾ والرفع: مستعار لجهر الصوت جهرا متجاوزا لمعتاد الكلام، شبه جهر الصوت بإعلاء الجسم في أنه أشد بلوغا إلى الأسماع كما أن إعلاء الجسم أوضح له في الإبصار، على طريقة الاستعارة المكنية، أو شبه إلقاء الكلام بجهر قوي بإلقائه من مكان مرتفع كالمئذنة على طريقة الاستعارة التبعية، وموقع قوله: (فوق صوت النبي) موقع الحال من أصواتكم، أي متجاوزة صوت النبي -صلى الله عليه وسلم- ، أي متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بجهر معتاد⁽²⁸⁾.

والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلم بعضكم بعضا كما وقع في صورة سبب النزول، ولقد تحصل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول -الله صلى الله عليه وسلم- إذ ليس المراد أن يكونوا صامتين عنده.

وفي صحيح البخاري: قال ابن الزبير فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر (أي ابن الزبير) ذلك عن أبيه يعني أبا بكر⁽²⁹⁾، ولكن أخرج الحاكم وعبد بن حميد عن أبي هريرة : أن أبا بكر قال بعد نزول هذه الآية: "والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله"⁽³⁰⁾.

(27) التفسير الكبير: 93،94/28.

(28) التحرير والتنوير: 255/3.

(29) صحيح البخاري: النكاح، 4845.

(30) المستدرک علی الصحیحین: ج 2، ص 501

وقوله: ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض نهي عن جهر آخر، وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صلى الله عليه وسلم لوجوب التغاير بين مقتضى قوله: "لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي" ومقتضى "ولا تجهروا له بالقول".

واللام في: "له" لتعدية "تجهروا" لأن "تجهروا" في معنى: تقولوا، فدللت اللام على أن هذا الجهر يتعلق بمخاطبته، وزاده وضوح التشبيه في قوله: كجهر بعضكم لبعض⁽³¹⁾.

وفي هذا النهي ما يشمل صنيع الذين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات فيكون تخلصاً من المقدمة إلى الغرض المقصود، ويظهر حسن موقع قوله بعده إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون.

ويأتي النهي في الآية الكريمة مصاحباً للنداء للتأكيد والتحذير من الإساءة إلى النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- ونلاحظ تكرار التقاء أسلوب النهي هنا مع أسلوب النداء ذي القدرة على استحضار المنادى داخل السياق يجعل المخاطبين أقرب للاستجابة عما ينهوا عنه، فضلاً عن تمثل المتلقي -غير المخاطب- للدلالة التي يعنى السياق بإبرازها وهو ما يجعل في هذا الالتقاء فائدة أخرى، وهي لفت انتباه المتلقي وتواصله مع النص الكريم، ويشير إلى ذلك أحد الباحثين بقوله: "وترد أساليب النهي الواردة في أي النداء بذلك البعد الطلبي وبما يحمله من دلالات مصاحبة للنداء القرآني مظهرة ذلك الارتباط الوثيق بين النداء وما يتبعه من طلب مبلوراً تلك الدلالات البلاغية وما تنطوي عليه من قدرة على لفت انتباه المتلقي وتواصله مع النص الكريم"⁽³²⁾.

والحبط: تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يعقبها من كبائر، وهو من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها واعتلت وربما ماتت.

وظاهر الآية التحذير من حبط جميع الأعمال لأن الجمع المضاف من صيغ العموم، وقد يقول قائل: لا يكون حبط جميع الأعمال إلا في حالة الكفر والذي رفع صوته قد أخطأ لكنه لم يكفر؟ ويؤرد على ذلك بأن سوء الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا النهي قد يفضي بفاعله إلى الكفر، قال ابن عطية: أي يكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم فلا تزال معتقداتكم تتدرج القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر فحبط

(31) التحرير والتنوير: 252 / 13.

(4) أساليب النداء في القرآن في القرآن الكريم: 349

الأعمال، وأقول: لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم يعود النفس بالاسترسال فيه فلا تزال تزداد منه وينقص توفير الرسول صلى الله عليه وسلم من النفس وتتولى من سيئ إلى أشد منه حتى يعول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه وذلك كفر، وهذا معنى وأنتم لا تشعرون أن المنتقل من سيئ إلى أسوأ لا يشعر بأنه آخذ في التملّي من السوء بحكم التعود بالشيء قليلاً قليلاً حتى تغمره المعاصي وربما كان آخرها الكفر حين تضرى النفس بالإقدام على ذلك (33).

"إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ" (34)

تصدير الكلام بحرف التأكيد "إِنَّ" للاهتمام بمضمونه من الثناء عليهم وجزاء عملهم، وهو ترغيب في الانتهاء عما نحووا عنه بعد التهيب عن الإخلال به الذي ورد في الآية السابقة على هذه الآية، وهكذا شأن القرآن، حيث يجمع بين الترغيب والتهيب "إنه الترغيب العميق، بعد التحذير المخيف. بما يربي الله قلوب عباده المختارين، ويعدها للأمر العظيم. الذي نخض به الصدر الأول على هدى من هذه التربية ونور" (35). ومعنى الغض: خفض العين، أي أن لا يحدق بها إلى الشخص وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار.

واللام في قوله: "للتقوى" لام العلة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أي لتكون فيها التقوى، أي ليكونوا أتقياء، يقال: امتحن فلان للشيء الفلاني كما يقال: جرب للشيء ودرب للنهوض بالأمر (36). ويُفهم من الآية أن التقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب، بعد تمحيص وامتحان، فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها، وثبت أنه يستحقها. وأن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لقبول تلك الهبة. هبة التقوى. وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم. وجملة لهم مغفرة خير (إن) وهو المقصود من هذه من الجملة المستأنفة وما بينهما اعتراض للتنويه بشأنه (37).

(33) المحرر الوجيز / 6.

(34) سورة الحجرات، آية: 3.

(35) في ظلال القرآن: 6 / 3340.

(36) التحرير والتنوير: 223/27.

(37) التحرير والتنوير: 8 / 125.

وهذا الوعد والثناء يشمل أول ما يشمل أبا بكر الصديق: "قَالَ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) تَأَلَّى أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يُكَلِّمَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا كَأَخِي السِّرَارِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي بَكْرٍ: {إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ} (38).
 "و(من) للابتداء، أي ينادونك نداء صادرا من وراء الحجرات وتعريف الحجرات باللام تعريف العهد(39)، لأن قوله ينادونك مؤذن بأن الحجرات حجراته فلذلك لم تعرف بالإضافة.

ونداء الأعراب من وراء الحجرات وقع قبل نزول الآية أي قد وقع في الماضي لكنه جاء في الآية بصيغة المضارع فقال تعالى: (ينادونك) لاستحضار حالة نداءهم.

تنتقل السورة من الأدب الخاص إلى الأدب العام لتقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، وتأمر بالثبوت من الأنبياء والأخبار، لاسيما إن كان الخبر صادرا عن شخص متهم بالفسق، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق، سببت كارثة من الكوارث، وكم من خبر لم يثبت منه سامعه، جر وبالا، وأحدث انقساماً(40).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"(41). هذا النداء الثالث، ولعله يؤكد ما أشرنا إليه من مركزية النداء في السورة الكريمة. لقد جاء النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التشريع. وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير. وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات في السورة. فلا بد من بيان المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها، وطاعتها. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنبياء وكيف يتصرفون بها؛ ويقرر ضرورة الثبوت من مصدرها(42).

وقد فطن الإمام الرازي إلى ملحظ لطيف في استخدام أسلوب الشرط؛ حيث يقول: "قوله تعالى: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) إشارة إلى لطيفة، وهي أن المؤمن كان موصوفا بأنه شديد على الكافر غليظ عليه، فلا يتمكن

(38) أسباب نزول القرآن: 386.

(39) الكشاف: 213/2.

(40) انظر صفة التفاسير: 241 /3.

(41) سورة الحجرات، آية: 6.

(42) في ظلال القرآن: 6/3314.

الفاسق من أن يخبره نبأ ، فإن تمكن منه يكون نادرا ، فقال: (إِنْ جَاءَكُمْ) بحرف الشرط الذي لا يذكر إلا مع التوقع، إذ لا يحسن أن يقال: إن احمر البس ، وإن طلعت الشمس "(43) .

والفاسق: المتصف بالفسوق، وهو فعل ما يحرمه الشرع من الكبائر ، وتنكير "فاسق" للتعميم لأنه جاء نكرة في سياق الشرط وهي كالكثرة في سياق النفي تفيد العموم وجاء تخصيص الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيسود الشك ويغلب سوء الظن ويضعف ترابط المجتمع وتنتشر الفتن. فالأصل في المجتمع المسلم أن يكون أفراده موضع ثقة، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذا بها. أما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره. وبذلك يستقيم أمر المجتمع المسلم وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليه من أنباء. فما يصل من المؤمنين فالأصل فيه الصدق، أما ما يصدر عن فاسق فيجب التثبت منه وعدم التعجل في تصديقه "ومدلول الآية عام، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق؛ فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره، أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء. وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار "(44).

"أَنْ تُصَيَّبُوا": تعليل للأمر بالتبين أي فتبينوا مخافة أن تتهموا قوما بجهالة، فتصبخوا بعد ظهور براءته نادمين معتمين بسبب ما رميتوهم به من باطل.

وتقديم الجور على متعلقه في قوله: "عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" للاهتمام بذلك الفعل، وهو الاتهام بدون تثبت وتبين، والتحذير من خطر أمره.

(وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) أي واعلموا - أيها المؤمنون - أن بينكم الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - المعصوم عن اتباع الهوى ، ابتداء الجملة بـ "اعلموا" للاهتمام، والخبر هنا مستعمل في الإيقاظ والتحذير على وجه الكناية، فإن كون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرانيتهم أمر معلوم لا يخبر عنه وحقيقة ظاهرة لا تحتاج إلى بيانه فهي " حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت. ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة؛ فتقول

(43) مفاتيح الغيب: 98 / 28

(44) ابي ظلال القرآن: 6 / 3341.

السماء، وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتقوم خطاهم أولاً بأول، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. ويفعل أحدهم الفعل ويقول أحدهم القولة، ويسر أحدهم الخالجة؛ فإذا السماء تطلع، وإذا الله - جل جلاله - ينبيء رسوله بما وقع، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع.. إنه لأمر. وإنه لنبأ عظيم. وإنما لحقيقة هائلة. قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه. ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب" (45).

(لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ)، أي لو يسمع كلامكم، ويصغي لإرادتكم، ويطيعكم في أغلب ما تشيرون عليه في الأمور، لوقعتم في الجهد والهلاك، قال ابن كثير: "أي اعلّموا أن بين أظهركم رسول الله، فعظموه ووقروه، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه، لأدى ذلك إلى عنتكم وخرجكم" (46)

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) أي ولكنه تعالى -بفضله العظيم- أثار بصائرهم فحبب إلى نفوسكم الإيمان وحسنه في قلوبكم.

(وَكُرْهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) أي كره إلى نفوسكم أنواع الضلال، من الكفر، والمعاصي، والفسوق، وفي الكلام تعريض بأن الذين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم بقية من صفات الجاهلية كالكفر والفسوق والعصيان.

وجملة: (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) معترضة للمدح. والإشارة بـ " أولئك " إلى ضمير المخاطبين في قوله: "إليكم" مرتين وفي قوله "قلوبكم" أي الذين أحبوا الإيمان وتزينت به قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، أي هم المستقيمون على طريق الحق" (47).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ بِنِسِ الْأَسْمِ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (48).

(45) في ظلال القرآن: 6/ 3341، 3342.

(46) تفسير ابن كثير: 7/ 372.

(47) التحرير والتنوير: 27/ 237.

(48) سورة الحجرات، آية 11.

"لما اقتضت الأخوة أن تحسن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم ، فجاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشيها في الجاهلية لهذه المناسبة"⁽⁴⁹⁾.

هذا عن مناسبة الآية لما قبلها، أما عن أحوال نظمها ودلالة النداء الوارد فيها فنجد ما يلي:

هذا النداء الرابع الذي يهتف بالمؤمنين لينهاهم أن يسخر قوم بقوم، أي: رجال برجال، فلعلهم خير منهم عند الله، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله، "وفي التعبير إيجاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس، فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد، وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير، والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل المؤوف، وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام. وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم. وذو العصية من اليتيم ... ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإيجاء، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها: ولا تلمزوا أنفسكم .. واللمز: العيب. ولكن للفظه جرسا وظلا؛ فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية!"⁽⁵⁰⁾.

ذكر الواحدي أن هذه الآية قد نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وذلك أنه كان في أذنيه قر، فكان إذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول، فجاء يوماً وقد أخذ الناس مجالسهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، فقال له رجل: قد أصبت مجلساً فأجلس، فجلس ثابت مغضباً، فعمر الرجل فقال: من هذا؟ فقال: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة؟ وذكر أمّا كانت له يعبر بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه استحياءً، فأنزل الله تعالى هذه الآية⁽⁵¹⁾.

وقيل إن قوله تعالى: "وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ"، نزلت لما عبرت بعض أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - أم سلمة بالقصر، وقيل: عبر بعضهن صفة بأنها يهودية⁽⁵²⁾. وأيا ما كان سبب النزول، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(49)التحرير والتنوير: 27 / 246.

(50)في ظلال القرآن: 6 / 3344.

(51)أسباب نزول القرآن: 409.

(52)المصدر السابق.

وافتتحت هذه الآية بإعادة النداء بوصف الإيمان حتى تستثير معنى الإيمان، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتناز. وقوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ" أي يا جماعة المؤمنين، يا من اتصفتم بهذه الصفة الحبيبة صفة "الإيمان" لا يهزأ أحد من أحد، فقد يكون المستهزىء منه، خيرا عند الله من الساخر

والقوم: اسم جمع : جماعة الرجال خاصة دون النساء ، قال زهير :
وما أَدْرِي وسوف إِخَالَ أَدْرِي * أَقَوْمٌ أَلْ حِصْنِ أُمِّ نِسَاءٍ؟⁽⁵³⁾

وتنكير: "قَوْمٌ" في الموضوعين لإفادة الشمول، لئلا يتوهم نهي قوم معينين سخروا من قوم معينين .
"وإنما أسند "يسخر" إلى "قوم" دون أن يقول: لا يسخر بعضكم من بعض كما قال: ولا يغتب بعضكم بعضا للنهي عما كان شائعا بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجه النهي إلى الأقوام، ولهذا أيضا لم يقل: لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة، ويفهم منه النهي عن أن يسخر أحد من أحد بطريق لحن الخطاب، وهذا النهي صريح في التحريم"⁽⁵⁴⁾.

. "وجملة (عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) مستأنفة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين تفيد المبالغة في النهي عن السخرية بذكر حالة يكثر وجودها في المسخورية ، فتكون سخرية الساخر أفضع من الساخر، ولأنه يثير انفعال الحياء في نفس الساخرة بينه وبين نفسه . وليست جملة " عسى أن يكونوا خيرا منهم "صفة لقوم من قوله : " من قوم " وإلا لصار النهي عن السخرية خاصا بما إذا كان المسخور به مظنة أنه خير من الساخر، وكذلك القول في جملة عسى أن يكن خيرا منهم"⁽⁵⁵⁾.

"وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ"، أي ولا يسخر نساء من نساء، فعسى أن تكون المستهزأ منها ، خيرا عند الله وأفضل من الساخرة وجاء تخصيص "النساء" بالذكر مع أن القوم يشملهم بطريق التغليب كما هو في كلام العرب، دفعا لتوهم تخصيص النهي بسخرية الرجال.

⁽⁵³⁾ديوان زهير بن أبي سلمى - دار الكتب العلمية-بيروت- الطبعة الأولى - 1988م-17.

⁽⁵⁴⁾التحرير والتنوير: 247 / 27

⁽⁵⁵⁾التحرير والتنوير: 247 / 27.

"وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ"، أي ولا يعب بعضكم بعضاً، ولا يذكر أو ينادي بعضكم بعضاً بلقب السوء، ومن لطيف التعبير القرآني، قوله: (أنفسكم) فقد عبر عن المسلمين كأهم نفس واحدة، وفي هذا استجاشة لعاطفة الأخوة الإيمانية، وتذكير للذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها، واللمز: العيب. ولكن للفظه جرسا وظلا؛ فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية⁽⁵⁶⁾.

"بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ"، أي بئس أن يسمى الإنسان فاسقا بعد أن صار مؤمناً، قال البيضاوي: "وفي الآية دلالة على أن التناز فسق، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح"⁽⁵⁷⁾.

"وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"، أي ومن لم يتب عن اللمز والتناز، فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ"⁽⁵⁸⁾.

تبدأ الآية الكريمة - على نسق السورة - بذلك النداء الحبيب: يا أيها الذين آمنوا.. ثم تأمرهم باجتناز كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نبها لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك. فتقيم الآية بذلك سياجا آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم، حول حرمان الأشخاص به وكراماتهم وحررياتهم، وتعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، وقد جاء هذا كله في أسلوب مؤثر عجيب..

"وتنكير (كثيرا) ليحتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل، فإن من الظن ما يباح اتباعه كالظن في الأمور المعاشية، ومنه ما يجب كالظن حيث لا قاطع فيه من العمليات كالواجبات الثابتة بغير دليل قطعي وحسن الظن بالله عز وجل، ومنه ما يحرم كالظن في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين، ففي الحديث (أن الله تعالى حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء"⁽⁵⁹⁾).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ"، أي ابتعدوا عن إساءة الظن بالناس، وعبر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظن، ولا يسارع فيه بل يدقق ويتحقق.

⁽⁵⁶⁾ انظر في ظلال القرآن: 6/3345.

⁽⁵⁷⁾ تفسير البيضاوي: 5/136.

⁽⁵⁸⁾ سورة الحجرات، آية: 12.

⁽⁵⁹⁾ روح المعاني: 26/157.

"إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ"، أي إن في بعض الظن إثم وذنوب، يستحق صاحبه العقوبة عليه، قال عمر رضي الله عنه: "لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا، ولا تعتقدن بها شرا، وأنت تجد لها في الخير حملا" (60).

"وَلَا تَجَسَّسُوا"، أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوا عيوبهم
 "وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا" أي لا يذكر بعضكم بعضا بالسوء في غيبته بما يكرهه
 "أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا" تمثيل لشناعة الغيبة وقبحها فمن يغتاب أخاه فكأنما أكل لحم أخيه المسلم وهو ميت.

وقد أشار الفخر الرازي إلى الحكمة من هذا التشبيه، يقول: "ما الحكمة في هذا التشبيه؟ نقول: هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه، وهذا من باب القياس الظاهر، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى؛ لأن ذلك آلم، وقوله: (لحم أخيه) أكد في المنع؛ لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو، فقال: أصدق الأصدقاء من ولدته أمك، فأكل لحمه أقبح ما يكون، وقوله تعالى: (ميتا) إشارة إلى دفع وهم، وهو أن يقال: القول في الوجه يؤلم فيحرم، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتتاب فلا يؤلم، فقال: أكل لحم الأخ وهو ميت أيضا لا يؤلم، ومع هذا هو في غاية القبح؛ لما أنه لو اطلع عليه لتألم، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه، وفيه معنى: وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمي ميتا، ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي الميت، فلا يأكل لحم الآدمي، فكذلك المغتتاب إن وجد لحاجته مدفعا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب⁽⁶¹⁾.
 "فَكَرِهْتُمُوهُ"، أي كرهتوا هذا الفعل الشنيع فالإنسان يكره أن يأكل لحم إنسان مثله - فضلا عن كونه أخا، فضلا عن كونه ميتا فآكرهوا الغيبة، فهي فعل شنيع.

"وَاتَّقُوا اللَّهَ"، أي خافوا الله واخشوا عقابه، بامثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.
 "إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ"، أي إنه تعالى كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى الله وتاب وأناب، وتذليل الآية بهذا القول فيه حث على التوبة، وترغيب بالمسارعة إليها لئلا يقنط أحد من رحمة الله تعالى.

(60) مختصر تفسير ابن كثير: 3/ 364.

(61) مفاتيح الغيب: 28/ 110، 111.

بعد هذه النداءات السامية التي دعت إلى أعظم الفضائل ونهت عن تلك الرذائل لتسمو الجماعة المؤمنة إلى ذلك الأفق السامق، يأتي النداء الأخير في السورة، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها؛ ليحثها على التآلف والتعاون والتوَادُد: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (62).

لما دعا تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهى عن مساوئها، وحذر المؤمنين من بعض الأفعال القبيحة، دعا الناس هنا جميعاً للتعرف والتآلف، ونهاهم عن التفاخر بالأنساب، ثم بين صفات المؤمن الكامل الذي يحبه الله تعالى (63).

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ"، جاء الخطاب هنا لجميع البشر مُذَكِّراً لهم أنهم من أصل واحد، فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالأحساب والأنساب (64)، فالكل إلى آدم وآدم من تراب. ونودوا بوصف الناس دون المؤمنين مراعاة للمناسبة بين هذا الوصف وبين ما صدر به الغرض من التذكير بأن أصلهم واحد، أي أنهم في الخلقة سواء ليتوسل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنما يكون بالفضائل وإلى أن التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى فقليل: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى (65).

"وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"، أي وجعلناكم شعوباً شتى وقبائل متعددة، ليحصل بينكم التعارف والتآلف، لا التنافر والتخالف، قال مجاهد ليعرف الإنسان نسبه فيقال فلان بن فلان من قبيلة كذا، وأصل تعارفوا تتعارفوا حذفت إحدى التاءين تخفيفاً، قال شيخ زاده: "والمعنى إن الحكمة التي من أجلها جعلكم على شعوب وقبائل؟ هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير آباءه، لا أن تتفاخر بالآباء والأجداد، والنسب وإن كان يعتبر عرفاً وشرعاً، حتى لا تزوج الشريفة بالنبطي، إلا إنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم قدراً منه وأعز، وهو (الإيمان والتقوى)، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس" (66).

(62) سورة الحجرات، آية: 13.

(63) صفوة التفاسير: 336 / 3

(64) أشار الفخر الرازي إلى الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر، وعلل ذلك بأن الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها؛ لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به، والحسن والسن، وغير ذلك غير ثابت دائم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له، فاختره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى. انظر مفاتيح الغيب: 113 / 28.

(65) التحرير والتنوير: 258/27.

(66) حاشية شيخ زاده على البيضاوي: 375/3.

وقوله: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"، أي إنما يتفاضل الناس بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، فمن أراد شرفاً في الدنيا ومنزلة في الآخرة، فليتق الله تعالى كما قال النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم -: "من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله" (67) وفي الحديث: "فالناس رجلان: بر تقى كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله" (68) وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاعات والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم الفانية التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد. ويرتفع ميزان واحد (69) بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، هو ميزان تقوى الله.

"إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" أي عليم بالناس، يعلم ظواهرهم وبواطنهم، وهذه الجملة تعليل لجملة "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" أي إنما كان أكرمكم أتقاكم لأن الله عليم بالكرامة الحق وأنتم جعلتم المكارم فيما دون ذلك، حيث جعلتموها في النسب والمال والجاه وغير ذلك. فإن كان من كرامة فهي التقوى (70) والله هو الخبير بمقدار حظوظ الناس من التقوى، وقد جاء هذا القول تذيلاً للآية الكريمة، وهو كناية (71) عن الأمر بتزكية نواياهم في معاملاتهم وما يريدون من التقوى بأن الله مطلع على ما في نفوسهم ويجازيهم عليه.

وبعد تلك النداءات المتكررة تحدد السورة معالم الإيمان، الذي باسمه دُعي المؤمنون إلى إقامة المكارم والابتعاد عن الرذائل، وباسمه هتف لهم ليلبوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الشريف، الحافز إلى التلبية والتسليم: "يا أيها الذين آمنوا" ذلك النداء الحبيب الذي يخجل من يُنادى به من الله أن لا يجيب، والذي يسر كل تكليف ويهون كل مشقة، ويشوق كل قلب فيلبي ويستجيب: "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (72).

(67) تفسير البيضاوي: 375/3.

(68) صحيح الترمذي: 3270.

(69) انظر في ظلال القرآن: 6 / 3348.

(70) لا ينافي هذا أن تكون للناس مكارم أخرى ولكنها تأتي في المرتبة الثانية بعد التقوى.

(71) انظر التحرير والتنوير: 263 / 27.

(72) سورة الحجرات، الآيات 14، 15، 16.

وتكشف السورة في ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر، هبة الإيمان التي يمن بها على⁽⁷³⁾ من يشاء، وفق ما يعلمه فيه من استحقاق: **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۗ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۗ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ*** إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ⁽⁷⁴⁾.

لقد جاءت هذه السورة كعقد فريد وجاء النداء فيها ليربط بين حبات هذا العقد في نسق بديع، فهي تُمثّل نموذجاً من النماذج الإعجازية في القرآن الكريم، بما تضمّنته من كم هائل من القوانين والسنن في مجالات مختلفة، وعبرت بعدد قليل من الآيات الكريمة عن كثير من المبادئ الحقوقية، والاجتماعية، والتربوية، والأخلاقية، كما أوضحت السورة حقيقة الإيمان، وبيّنت تفاوته عن الإسلام ومراتب كل واحد منهما. وقد اعتمدت السورة أسلوب النداء في مواضع كثيرة وهو أحد أساليب التوطئة والتهيئة التربوية التي تؤدي إلى جذب انتباه المتلقي وحثه على الاقتراب والتركيز وإيجاد نوع من الألفة والاستمالة والخصوصية⁽⁷⁵⁾ التي تشعره بمدى أهميته واهتمام الخطاب القرآني به مما يجعله أكثر استعداداً للتلقي والامتثال، حيث شكّل النداء بذلك مركزية كبرى في السورة الكريمة.

الخاتمة

- يأتي الخطاب القرآني ملائماً لظروف المجتمع الذي ينزل فيه ولذا فإن التعرف على المكّي والمدني من الآيات والسور القرآنية ودراسة كل منها يكشف عن تلون المخاطبة القرآنية تبعاً لظروف المجتمع سواء في مكة أو في المدينة، فالظروف في الفترة المكّية تختلف عنها في الفترة المدنيّة، وفي تلك الظروف يأتي القرآن موافقاً لما عليه المجتمع في مكة أو في المدينة، ولذا فإن معرفة المكّي والمدني تسهم في التعرف على لون الخطاب وإدراك ما يهدف إليه.

⁽⁷³⁾ في ظلال القرآن: 6/ 3337.

⁽⁷⁴⁾ سورة الحجرات، آية: 18، 17.

⁽⁷⁵⁾ أسوار الأمان: 13.

- شغلت المعاملات والتشريعات مساحة كبيرة من التنزيل المدني باعتبارها أساساً ضرورياً لقيام المجتمع المسلم ، وقد ظل الخطاب يتكرر بشأنها ليملاً على القوم حياتهم ، لكي تصبح هذه التشريعات رادعاً قوياً ، ودرعاً حامياً أمام أي انحراف. وقد عمد النظم القرآني عند الحديث عن بعض جوانب هذه التشريعات إلى استخدام طريقة في التعبير ، هي طريقة التصوير والتشخيص حيث يذهب إلى تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية ، وإبرازها في صورة حسية وهذه الطريقة هي من أفضل طرق التعبير وأقومها ؛ لأن المعاني فيها لا يخاطب بها العقل وحده بل تشترك معه كل قوى الإدراك: السمع والبصر، والشم واللمس والذوق والعواطف والشعور والأحاسيس فحين يخاطب القرآن الناس بهذه الطريقة يصبح الإنسان بكل شعوره وحواسه آلة إدراك وتذوق وتأمل.
- المتأمل في النظم القرآني يلحظ كثرة ورود الأساليب الإنشائية من أمر ونهي واستفهام مقترنة مع النداء القرآني وكثيراً ما يكون ورودها في النص الكريم مصحوباً بتحول دلالي تفارق فيه هذه الأساليب دلالتها الحرفية المباشرة إلى دلالات أُخر وهو ما يعرف في الدرس البلاغي القديم بفكرة الأغراض. وهذا التحول من الدلالة الحرفية المباشرة إلى الدلالة البلاغية ينطوي على قدرة لافتة تسهم في جذب انتباه المتلقي وبقاء تواصله مع النص في أكثر حالاته تجاوباً وتفاعلاً.
- تُمثّل سورة الحجرات نموذجاً من النماذج الإعجازية في القرآن الكريم، حيث تضمّنت كماً هائلاً من القوانين والسنن في مجالات مختلفة، وتحتوي بهذا الكم القليل من الآيات الشريفة على كثير من المبادئ الحقوقية، والاجتماعية، والتربوية، والأخلاقية، فقد أوضحت السورة حقيقة الإيمان، وبيّنت تفاوته عن الإسلام ومراتب كل واحد منهما. وقد اعتمدت السورة أسلوب النداء في مواضع كثيرة وهو أحد الأساليب التوطئة والتهيئة التربوية التي تؤدي إلى جذب انتباه المنادي وحثه على الاقتراب والتركيز وإيجاد نوع من الألفة والاستمالة والخصوصية التي تشعره بمدى أهميته واهتمام الخطاب القرآني به يجعله أكثر استعداداً للتلقي والامتثال، حيث شكّل النداء مركزية كبرى في السورة.

المصادر والمراجع

- ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، 1995م- التحرير والتنوير -- دار سُحُنون للنشر والتوزيع- تونس .
- ابن عطية الأندلسي - 1992م. المحرر الوجيز في تفسير الكتب العزيز- تحقيق المجلس العلمي بتارودانت - مكتبة ابن تيمية- القاهرة.
- ابن كثير - 2002م - تفسير القرآن العظيم - مكتبة الصفا - القاهرة - الطبعة الأولى .
- أبو حيان التوحيدي ، 1983م- البحر المحيط -- وبهامشه تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان، كتاب الدر اللقيط من البحر المحيط للإمام تاج الدين الحنفي- دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية.
- أبو موسى ، محمد محمد أبو موسى - 1988م- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية - مكتبة وهبة- الطبعة الثانية.
- الألوسي ، 2010- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- - تحقيق أبو عبد الرحمن فؤاد ابن سراج عبد الغفار- المكتبة التوفيقية- القاهرة
- البيضاوي -2003م- أنور التنزيل وأسرار التأويل - دار الكتب العلمية- بيروت الطبعة الأولى.
- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري- 1990- المستدرک علی الصحیحین- دار الكتب العلمية - بيروت.
- دراز، أ.د صباح دراز - 1986م - الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية ف القرآن الكريم - مطبعة الأمانة- القاهرة- الطبعة الأولى.
- الرازي، فخر الدين الرازي- 1985م - مفاتيح الغيب- دار الفكر - بيروت- الطبعة الثالثة.

- زاده، محيي الدين شيخ زاده-حاشية زاده غلى البيضاوي - دار الكتب العلمية -بيروت.
- الزرقاني، محمد عبدالعظيم الزرقاني، ١٣٦٧هـ)الناشر- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثالثة
- الزركشى، بدر الدين الزركشي - 1988م - البرهان في علوم القرآن- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان - الطبعة الأولى.
- زهير، زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى-1988م - دار الكتب العلمية-بيروت- الطبعة الأولى.
- السيد أحمد عبد الغفار - قضايا في علوم القرآن تعين على فهم دلالات النص - دار المعرفة الجامعية.
- السيوطي، جلال الدين السيوطي ، 1984- الإتيقان في علوم القرآن- دار الندوة الجديدة- بيروت- لبنان
- شحاتة، د. عبد الله شحاتة -1985م. -علوم القرآن- دار الاعتصام- الطبعة الثالثة.
- الصابوني، محمد على الصابوني- صفوة التفاسير- دار الصابوني- القاهرة- الطبعة التاسعة .
- القرآن الكريم.
- المطعني، عبد العظيم المطعني-1992م- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية - مكتبة - وهبة القاهرة- الطبعة الأولى.
- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ، 1992- أسباب النزول-- دراسة وتحقيق الدكتور السيد الجميلي - دار الريان للتراث.